الإنسان بين الوحي والتسبيح: نحو أنتروبولوجيا لاهوتيّة وطبيعيّة قراءة للمزمورَين ١٩ و ١٤٨

الأب أنطوان عوكر
باحث في الكتاب المقدّس

مقدّمة

يندرج الموضوع الذي نُعالجه في إطار عامٍّ هو "التفاعل بين الإنسان وسائر المخلوقات". يشمل هذا العنوان الكبير جوانب مُتعدّدة، منها علميّة كيميائيّة وفيزيائيّة وتكنولوجيّة، ومنها فلسفيّة ولاهوتيّة ووجوديّة. في هذا السياق اخترنا لموضوعِنا الإطار الدينيّ. نعالجه من الزاوية الكتابيّة كما تظهر في كتاب سفر المزامير، وتحديدًا في المزمورَين ١٩ و١٤٨.

قراءة سريعة لهذين المزمورَين تُظهر الموضوعات العامّة التي تربطهما: السموات، والشمس، والأرض، والإنسان، والشعب المختار... أمّا القراءة المُعمّقة فَتُظهر فيهما مَنهجَين لِمعالجة هذه الموضوعات: يعرض المزمور ١٩ الموضوعات من زاوية الوحي، في حين أنّ المزمور ١٤٨ يُقاربُها من زاوية التسبيح. تجدر الإشارة إلى أنّ هاتَين الزاويتَين (الوحي والتسبيح) ليستَا مُنفصلتَين لأنّهما تردان في كتاب المزامير الذي هو في الواقع كتاب صلاة. مِنْ هنا تأتي قسمة موضوعِنا إلى نُقطَتَين أساسيَّتَين نُعالجُ كُلاًّ منهما انطلاقًا من مزمور: فالمزمور ١٩ يُساعدنا على فهم الوحي كإظهار لمجدِ الله–الربّ والمزمور ١٤٨ يُبرز ماهيّة إعطاء المجد لله من خلال التركيزِ على هويّة المُهلِّلينَ وأسباب التهليل. وانطلاقًا من هاتَين النقطتَين، نعرض أخيرًا أبرز ما يُمكننا استخلاصه من هذين المزمورَين على الصعيد الانتروبولوجيّ.

قَبل الدخول في موضوعنا، نشير إلى أنّنا لن نتوسّع بالمنهجيّات التفسيريّة للمزمورَين، وإنْ كانت هذه المنهجيّات في أساس الخلاصات التي نعرضها؛ فهدفنا هو الوصول إلى الأبعاد الأنتروبولوجيّة. بالمُقابل، ولأنّ الترجمة هي جزء أساسيّ من التفسير، ارتأينا أنْ نقرأ المزمورَين بحسب الترجمة الحرفيّة المُعتمدة في كتاب **العهد القديم العبريّ، ترجمة بين السطور عبري–عربي**[1].

أوّلاً: إظهار مجد الله–الربّ (قراءة للمزمور ١٩)

١٩ ١لِمُتَقَدِّم مَزمُورٌ لِداودَ.
٢ السماواتُ رَاوِيَةٌ مَجْدَ إيل،
وَصُنْعَ يَدَيه مُخْبِرٌ الجَلَدُ.
٣ يَومٌ لِيَوم يُنْبِعُ قَوْلاً،
وَليلٌ لِلَيل يُعْلِنُ مَعْرِفَةً.
٤ لَيسَ قَولٌ وَلَيسَ كَلِماتٌ،
لا مَسْمُوعٌ صَوتُها.
٥ في كُلِّ الأرض خَرَجَ خَطُّها،
وَفي أَقصَى مَسكُونَة كَلِماتُها.
لِلشمس جَعَلَ خَيمَةً فيها،
٦ وَهِيَ كَعَريس خارِج مِنْ خِدْرِه،
يُسَرُّ كَجَبَّارٍ لِرَكْض سَبيلٍ.

٧ مِنْ أَقْصَى السماوات خُروجُها،
وَمدارُها عَلى أَقاصيها، وَليسَ مَسْتُورٌ
مِنْ حَرِّها.
٨ شَريعَةُ يهوه تامَّةٌ، مُرْجِعَةٌ نَفْسًا.
شَهادَةُ يهوه مُؤَمَّنَةٌ، مُحَكِّمَةٌ بَسيطًا.
٩ أَوامِرُ يهوه مُسْتَقيمَةٌ، مُفَرِّحَةُ قَلْبٍ.
وَصِيَّةُ يهوه نَقِيَّةٌ، مُنيرَةُ عَيْنَين.
١٠ مَخافَةُ يهوه طاهِرَةٌ، وَاقِفَةٌ لِلأَبَد.
أَحْكامُ يهوه حَقٌّ، تَبَرَّرَتْ مَعًا.
١١ المُشتَهاةُ (أكثَرَ) مِنْ ذَهَبٍ وَمِنْ إبريزٍ
كَثيرٍ،
وَحُلوَةٌ (أكثَرَ) مِنَ العَسَلِ وَقَطْرِ شِهادٍ.

(١) بولس الفغالي وأنطوان عوكر، **العهد القديم العِبريّ؛ ترجمة بين السطور: عِبريّ – عربيّ**، الجامعة الأنطونيّة، ٢٠٠٧.

١٢ أيضًا عَبْدُكَ مُنْذَرٌ بِها، يَتَسَلَّطُونَ بي.
في حِفْظِها ثَوابٌ كَبيرٌ. حينَئذ أُتَمَّمُ وَأُنَقَّى مِنْ تَعَدٍّ كَبيرٍ.
١٣ الزلاَّتِ مَنْ يَتَبَيَّنُ؟ مِنَ المَستُوراتِ ١٥ تَكونُ لِلرِّضَى أَقوالُ فَمي، وَتأَمُّلُ
نَقِّني. قَلْبي أَمامَكَ،
١٤ أيضًا مِنْ مُتَكَبِّرينَ اِمْنَعْ عَبْدَكَ، لا يا يهوه مُصَوِّري وَمُفْتَدِيَّ.

قراءة سريعة للمزمور ١٩ تُظهر أنّه مؤلَّف من قسمَين (بعضهم يقول مزمورَين) وكأنّه لا رابط بينهما: قسم أوّل "كونيّ" (آ ٢–٧) يُمكن أن يكون نشيدًا سومريًّا أو أكّاديًّا يتحدّث عن النيّرات السماويّة التي تمجّد "الله" (إيل)، وقسم ثان "تعليميّ" (آ ٨–١٥) يُعدّد محاسن شريعة "الربّ" (يهوه) ومفاعيلها.

لن ندخل في قراءة تاريخيّة–نقديّة للمزمور وفي الفرضيّات المقترحة للمراحل التي مرّ بها حتّى يصل إلى شكله النهائيّ. مهما يكن من أمر طبقاته التاريخيّة، هناك إحاطة[٢] معنويّة تحدّ المزمور بكامله وهي اسم الجلالة. يبدأ المَزمور بـ"الله" (إيل) لأنّ الإطار إطار فلكيّ، كونيّ؛ وينتهي بـ"الربّ" (يهوه) لأنّ الإطار إطار العهد والشريعة. وما يتميّز به المزمور هو أنّه يجمع بين هذين الإطارَين اللاهوتيّين، إطار الخلق وإطار العهد، حتّى يعبّر عن تكاملهما.

القسم الأوّل (آ ٢–٧)

يشكّل هذا القسم وحدة متكاملة من خلال موضوعه الفلكيّ–الكونيّ، ومن خلال الإحاطة التي تحدّه؛ فتكرار كلمة "السموات" في بدايته ونهايته (آ ٢ وآ ٧) يضفي على هذا القسم الطابع الفلكيّ الشامل. يتألّف هذا القسم من مقطَعَين: آ ٢–٤ وآ ٥–٧. يُقسم المقطع الأوّل إلى ستّة أبيات توحّدها العبارات التي تدلّ

(٢) تكرار كلمة أو عبارة أو فكرة يُعبِّر عن نصّ متكامل أدبيًّا ومعنويًّا.

على النطق (روى، أخبر، أنبع قَولاً، أعلَن، قَول، كلمة، صوت). أمّا المقطع الثاني فيُقسم إلى ثمانية أبيات يوحّدها البُعد الشمولي، "من أقصى مسكونةٍ" (آ ٥) "إلى أقصى السموات" (آ ٧).

يعرض القسم الأوّل من المزمور أهمّيّة "الكشف" الذي تقوم به الأفلاك؛ فالسموات تُعلن "الله" الخالق، والليل والنهار يُظهران معرفته؛ فتأثير خلق الله كونيّ وشامل، لكنّ لسان الأفلاك يبقى صامتًا وغير مسموع من البشر.

يدعونا هذا القسم من المزمور إلى "فَكّ ألغاز" الخطاب السرّيّ اللاهوتيّ الذي يدور في الأفلاك بين بعضها البعض (آ ٢–٤)، وفي حركاتها الكونيّة (آ ٥–٧). فالسموات المؤلَّهة والمعبودة في الديانات الأخرى هي جزء من الكون الذي خلقه الله، والذي يؤدّي المجد لخالقه.

القسم الثاني (آ ٨–١٥)

يُشكّل هذا القسم وحدة متكاملة من خلال موضوع "الشريعة"، ومن خلال الإحاطة التي تحدّه. شريعة الربّ "تامّة" (آ ٨)، وتجعل الذي يحفظها "مُتَمَّمًا" (آ ١٤). أضف إلى ذلك تكرار اسم "يهوه" سبع مرّات (مرّتين في كلٍّ من الآيات ٨ و٩ و١٠، والمرّة السابعة في نهاية القسم، آ ١٥) دلالةً على الكمال.

كما القسم الأوّل، يتألّف القسم الثاني من مقطعَين: آ ٨–١٠ وآ ١١–١٥. أيضًا، وبشكل متوازٍ للقسم الأوّل، يتألّف هذان المقطعان من ستّة وثمانية أبيات. أبيات المقطع الأوّل متوازية. تعرض الشريعة من جهة الربّ (تامّة، مُؤمّنة، مُستقيمة، نقيّة، طاهرة، حقّ)، وتعرض عملها في الإنسان (مُرجعةٌ نفسًا، مُحكِّمةٌ بسيطًا، مُفرِّحةُ قَلبٍ، مُنيرةٌ عَينَين، واقفةٌ للأبد). ومن الملاحظ أنّ البيت الأخير يكسر التوازي بوضعه "حقّ" بدل أن يكرّر صفة (تامّة، مُؤمّنة، مُستقيمة، نقيّة، طاهرة)، وهذا يُشير إلى انتهاء المقطع الأوّل.

أمّا المقطع الثاني (آ ١١–١٥) فيتميّز باستعمال المفاضلة (المُشتهاةُ أكثرَ، حُلوةٌ أكثر، ثواب كبير، تَعدٍّ كبير). شريعة الربّ طيّبة في قلب المؤمن (آ ١١)، وتجعله كاملاً ومطهّرًا (آ ١٢–١٤). وفي المقابل، الشريعة التي يهذّ بها المرنّم، أي أقوال فمه وخواطر قلبه، طيّبة للربّ (مرضيّة، مقبولة).

يدعونا القسم الثاني من المزمور إلى التأمّل بكلام الشريعة ونقاوتها، ويركّز على قدرتها التطهيريّة، وعلى الكمال الذي تقود إليه؛ فشريعة الربّ الكاملة هي مصدر الكمال الإنسانيّ.

الخلاصة اللاهوتيّة (مز ١٩)

١) الله الخالق هو في الوقت نفسه معطي إسرائيل الشريعة.

٢) الشريعة المكتوبة هي في تكامل مع القوانين الفلكيّة، وكلاهما يُعبّران عن مجد الله الخالق–المشرّع.

٣) بين المخلوقات الكونيّة تبقى الشمس كالعريس وكالجبّار؛ ولا شيء يخفى عن حرّها. والشريعة أيضًا تبقى علامة الكمال. وحده الربّ الذي خلق الشمس وأعطى الشريعة يبقى قادرًا على التطهير من كلّ الخفايا.

٤) صلوات المرنّم وأناشيده المسموعة (آ ١٥) هي في تكامل مع أناشيد الكون كلّه غير المسموعة (آ ٤)؛ فالمرنّم الذي يحفظ الشريعة يكمّل التمجيد الصامت الذي بدأته الأفلاك.

ثانيًا: إعطاء المجد للربِّ (قراءة للمزمور ١٤٨)

١٤٨ [١]**هَلِّلُوا يه.**
هَلِّلُوا يهوه مِنَ السماواتِ،
هَلِّلُوهُ في الأعالي.

[٢] هَلِّلُوهُ يا كُلَّ مَلائكَته،
هَلِّلُوهُ يا كُلَّ جُيُوشه،
[٣] هَلِّلاهُ يا شَمْسُ وَيا قَمَرُ،

هَلِّليه يا كُلَّ كَواكِبِ نُورٍ،
٤ هَلِّليه يا سَماواتِ السماواتِ،
وَأَيَّتُها المياهُ التي فَوقَ السماواتِ.
٥ يُهَلِّلُونَ اسْمَ يهوه،
لأنْ هُوَ أَوصَى فَخُلِقُوا،
٦ وَأَوقَفَهُم للدوامِ للأَبَدِ،
فَريضَةً أَعْطَى وَلا تَعْبُرُ.
٧ هَلِّلوا يهوه منَ الأرضِ
يا تَنانينُ وَيا كُلَّ غِمارٍ،
٨ يا نارُ وَبَرَدُ، ثَلْجُ وَدُخانُ،
ريحُ عاصِفَةُ صانِعَةُ كَلِمَتِه،
٩ أَيَّتُها الجِبالُ وَيا كُلَّ تِلالٍ،
يَا شَجَرَ ثَمَرٍ وَيا كُلَّ أَرزاتٍ،
١٠ أَيُّها الحيوانُ وَيا كُلَّ بَهيمَةٍ،
يا دَابُّ وَيا عُصْفُورَ جَناحٍ،
١١ يا مُلُوكَ أَرضٍ وَيا كُلَّ أُمَمٍ،
يا رؤساءُ وَيا كُلَّ قُضاةِ أَرْضٍ،
١٢ يا شُبَّانُ وَأيضًا يا بَتُولاتُ،
يَا شُيُوخُ مَعَ غِلمانٍ.
١٣ يُهَلِّلُونَ اسمَ يهوه،
لأنْ مَرفُوعٌ اسْمُهُ وَحْدَهُ،
جَلالُهُ عَلى أَرضٍ وَسَماواتٍ.
١٤ وَأعلى قَرْنًا لشَعْبِه، تَهْليلاً لِكُلِّ
أَتْقِيائِه، لِبَني إسرائيلَ شَعْبِ قُرْبِه.

هَلِّلُوا يه.

يتألّف المزمور ١٤٨، كما المزمور ١٩، من قِسمَين (آ ١–٦ وآ ٧–١٣، ١٤) مُحاطَين بدعوة جماعيّة للتهليل: "هلِّلوا يه" في مطلع المزمور وفي خاتمته، وهذان القسمان مبنيّان بشكلٍ متوازٍ. يبدآن بالدعوة نفسها: "هَلِّلوا يهوه من" (السماوات؛ الأرض) (آ ١ وآ ٧)؛ القسم الأوّل يدعو مخلوقاتٍ سماويّة للتهليل، والقسم الثاني مخلوقاتٍ أرضيّة. بعد هذه الدعوة الافتتاحيّة في القسمَين يأتي سَبَب هذه الدعوة إلى التهليل. أيضًا هذا السبب مُمهّد له بالجملة نفسها: "يُهلِّلون اسمَ يهوه لأنّ..." (آ ٥ وآ ١٣).

تختم نهاية آ ١٣ القسمَين من خلال تكرار "أرض وسماوات": بعد تهليل السماوات وما فيها والأرض وما فيها، تأتي الخاتمة: جلاله على "أرضٍ

وسماوات". ونجد أيضًا إحاطة كبرى (آ ١ وآ ١٤) توحّد القسمَين: ففي الآية الأولى هُناك دعوة "هلِّلوهُ في الأعالي"؛ وفي الآية الأخيرة نجد تكرارًا لهذَين التعبيرَين "لأنّه أعلى قَرنًا لشعبِه، تَهليلاً لكلِّ أتقيائه". تجمع هذه الإحاطة بين الله الخالق والله المخلِّص، الله المتعالي والله القريب الذي يُعلي شعبَه.

القسم الأوّل (آ ١–٦)

يتألّف هذا القسم، كما ذكَرنا، من مقطَعَين: دعوة مخلوقات سماويّة إلى التهليل (آ ١–٤) وسبب هذا التهليل (آ ٥–٦).

يحتوي المقطع الأوّل (آ ١–٤) على سَبعة أفعال أَمْرٍ بالتهليل، وعلى سبعة مخلوقات سماويّة، وعلى ثلاث مرّات "كلّ". تدلّ هذه الاستعمالات كلُّها على الشموليّة. يبدأ المُرنّم من مكان سُكنى الله، مِنَ السماوات والأعالي، ويدعو إلى التهليل انطلاقًا من هذا المكان. ومن هناك يتبع بُعدًا تنازليًّا في دعوة سبعة مخلوقات سماويّة للتهليل: الملائكة والجيوش والشمس والقمر وكواكب نور وسماوات السماوات والمياه التي فوق السماوات؛ فَكلّ ما كان يَرهَبُه الأقدمون، أو ما كانوا يؤلِّهونَه أصبح مُرَنِّمًا للربّ.

أمّا المقطع الثاني (آ ٥–٦) الذي يتضمّن سبب دعوة المخلوقات السماويّة إلى التهليل، فَيُشدِّد أيضًا على الشموليّة الزمانيّة (من الخَلقْ إلى دوام الأبد)، وعلى ثبات الفريضة المُعطاة من الله (فَريضة لا تَعبُرُ). يُشكلّ هذا النظام الكونيّ أساسًا يجعلُ عناصرَه مُسَبِّحة اسمَ الربّ الخالق والمُثَبِّت مخلوقاتِه السماويّة.

القسم الثاني (آ٧–١٣+١٤)

بعد دعوة المخلوقات التي "فوق السماوات" في القسم الأوّل، ينتقل المُرنّم إلى المخلوقات التي تحت السماوات. يدعوها بشكل متوازٍ لدعوة المخلوقات

السماويّة إلى التهليل للربّ في المقطع الأوّل (آ ٧–١٢)، وإلى إبراز سبب هذا التهليل في المقطع الثاني (آ ١٣).

يَسرد المُرنِّم في المقطع الأوّل (آ ٧–١٢)، تحت فعل أَمْرٍ واحد "هلِّلُوا"، لائحةً تصاعديّة، أو بالأحرى مُركَّزَة بمختلف المخلوقات الأرضيّة. يَجعل هذه المخلوقات في سبع فئات: "البحر وما فيه"، "الظواهر الجَوِّيَّة"، "التضاريس الأرضيّة"، "النبات"، "الحيوان"، "الملوك والرؤساء والقضاة"، "الشعب بمختلف فئات العمر". يتطوّر هذا السرد ليشمل كلّ أنواع المخلوقات (رمزيّة العدد ٧)، ويصل إلى قِمَّتِها التي هي الإنسان.

يُعلِّل المقطع الثاني (آ ١٣) دعوة المخلوقات جميعِها للتهليل لاسم الربّ: عظمتُه مطلقة؛ فاسمُه مرفوع وجلاله يُظلِّلُ على الأرضِ والسماوات.

ينتهي المزمور بالآية ١٤ التي يُمكنُ اعتبارُها تابعة لسبب التهليل (آ ١٣) أو خاتمة المزمور ونقطته الأساسيّة. في الاعتبار الأوّل، يظهر عمل الربِّ مع إسرائيل كأساسٍ لتهليل المخلوقات التي تحت السماوات؛ فالمخلوقات التي تتوق إلى الوصول إلى الإنسان بحسب الفصل الأوّل من سفر التكوين تسبّح كلُّها اسم الربِّ لأنّه اختار شَعبَه الخاصّ وأيّده بقوّته. أمّا في الاعتبار الثاني، أي في اعتبار آ ١٤ خاتمة المزمور، وهذا ما نُرجّحه، فَيُعطي اختيارُ إسرائيل لكلِّ ما قيل في المزمور منهجًا جديدًا: لا يندرج تَهليل أتقياء الربِّ في لائحة العناصر المُهلِّلة فحسب، بل يُعطيها معناها الخاصّ، لأنّ دعوتَها للتهليل تنطلق من أتقياء الربّ. وبنية آ ١٤ المحوريّة تؤسِّس لهذا الاعتبار:

أعلى قرنًا **لشعبِه**

تهليلاً لكلِّ أتقيائِه

لبني إسرائيل **شعبِ** قُربِهِ

فَتهليل أتقياءِ الربِّ الذي يأتي نتيجة اختبارِهم لعملِ الربِّ الخلاصيّ يُتمِّم (بالمعنى العميق لهذا الفعل: يُكمّل ما نَقصَ، يُعطي المفهوم الصحيح، يَختَتِم) التهليل الذي تقوم بِه سائر المخلوقات السماويّة والأرضيّة.

الخلاصة اللاهوتيّة (مز ١٤٨)

١) يرتبط كلّ ما هو مخلوق بالدعوة إلى التهليل؛ فالخلق هو أساس التهليل. وبما أنّ كلّ شيء مخلوق، فكلّ شيء مدعوٌّ إذًا إلى التهليل لاسم الربِّ الخالق–والمُثبِّت.

٢) ترتكز دعوة المخلوقات التي فوق السماوات على ثبات الشريعة الطبيعيّة؛ وترتكز دعوة المخلوقات التي تحت السماوات على رِفعة اسم الربِّ وجلاله، وعلى كلمته التي ظهرت في الشريعة الكتابيّة. فالشريعة الكتابيّةَ تتكامل مع الشريعة الطبيعيّة؛ والاثنتان ثابتَتان إلى الأبد.

٣) ميزة المزمور ١٤٨ هو أنّ المُرنّم يدعو المخلوقات للتهليل للربِّ، فالمزامير عامّة تدعو الناس لتمجيد الله على روائع الخليقة، أمّا المزمور ١٤٨ فيحثّ الخليقة على تسبيح الخالق. نحن إذًا أمام ليتورجيا كونيّة يلعب فيها الإنسان دور "المُنشِّط الليتورجيّ" الداعي إلى المشاركة في هذا النشيد الكونيّ[٣].

ثالثًا: نحو أنتروبولوجيا لاهوتيّة وطبيعيّة

بعد هذه القراءة التفسيريّة السريعة للمزمورَين ١٩ و١٤٨، نستخلص الآن أبرز الأبعاد الأنتروبولوجيّة التي يُمكِننا استنتاجُها من هذَين المزمورَين.

(٣) كان لهذه الميزة التأثير الكبير على نصّ سفر دانيال اليونانيّ (دا ٣: ٧٥–٩٠) الذي يتشابه إلى حدّ كبير مع مزمورِنا.

(٤) لن ندخل في مسألة الملائكة كمخلوقات وعلاقة الإنسان بها.

يتميّز الإنسان عامّة والمؤمن خاصّة بأربعة أبعاد علائقيّة: علاقة مع الله (أو مع إله!)، وعلاقة مع نفسه، وعلاقة مع الآخَر، وعلاقة مع سائر المخلوقات[٤] (وأبرزها عناصر الطبيعة). تأخذ هذه الأبعاد معانيَ جديدة انطلاقًا من هذَين المزمورَين.

علاقة المؤمن مع الله

يَبرز في هذه العلاقة المفهوم الجديد للصلاة والتسبيح؛ فَالتوسّع في البُعد التسبيحيّ للكون بأسره يدعو إلى إعادة نظر في مفهوم الصلاة بحدّ ذاتها. لم تعد الصلاة محصورة بالإنسان. يتوسّع البُعد "العلائقيّ" الذي تشكّله الصلاة من خلال الارتكاز على مفهوم الخَلق، مُبتعدًا بالتالي عن مفهوم القدرات العقليّة والمقوّمات الفكريّة. إذا كان الله خالق كلّ شيء، فَكلّ شيء يدخل في إطار علاقة بدأها الخالق مسبقًا. وما الصلاة الكونيّة إلا حالة اتّصال بخالق الكون وكلّ ما فيه. يرتكز هذا الاتّصال على المقدّرات الخاصّة بكلّ عنصر من عناصر الخليقة. فإذا كانت الشمس تخرج من أقصى السماوات إلى أقصاها، وإذا كانت تمتاز بحرِّها، فإنّها بهذه المقدّرات تؤدّي المجد للخالق. وَما يُقال عن الشمس يُطبَّق أيضًا على سائر المخلوقات، ومنها الإنسان؛ فإذا كان الإنسان يتميّز بالنطق وبالعَقل، تأتي صلاتُه مرتكزةً على هذه الميزة. ومن هنا أيضًا نفهم صلاة الإنسان المُعوّق عقليًّا أو الأصمّ أو الأخرس...؛ فهي تنطلق ممّا عنده لتُعبّر عن التواصل بينَه وبين الخالق.

علاقة المؤمن مع نفسه ومع الآخر

في إطار علاقة المؤمن مع الإنسان (مع نفسه أو مع الآخر)، يُستنتَج من المزمورَين قيمة إضافيّة تُعطى للإنسان. في الواقع، الإنسان جزء من الخليقة، مخلوق كما سائر المخلوقات، مُساوٍ لها في الخلق. أعطَته رواية الخلق الأولى في

سفر التكوين قيمة "ملوكيّة" على العناصر غير الإنسانيّة. أمّا المزموران ١٩ و١٤٨، فَيُبرزان قيمة أساسيّة أخرى للإنسان، وهي "ضبط إيقاع" أصوات الخلائق الأخرى. من هُنا يفهم المؤمن الدور "التناغميّ" المطلوب منه ومن الإنسان عامّة. فهذا الدور يدعوه إلى تناغم كيانيّ بين أصواته الداخليّة، وإلى تناغم إنسانيّ جوهريّ بينه وبين الخليقة الإنسانيّة. هذه المهمّة الائتلافيّة تجعله يُبعد كلّ أنواع التنافر.

علاقة المؤمن مع الطبيعة(٥)

هناك إغناء لمفهوم علاقة المؤمن بالطبيعة من خلال المزمورَين المُعالَجَين، تأخذ فيهما الطبيعة مكانةً تختلف عن مكانَتَين أُخرَيَين ظهرتَا في تاريخ البشريّة. أبرزَ المفهوم الميثولوجيّ القديم نظرة "تسلّطيّة" للطبيعة على الإنسان؛ أرعَبَت الطبيعة الإنسان فراح يسترضيها بالاستنجاد بها وبتقديم الذبائح لها. بالمُقابل، يظهر الإنسان، في المفهوم التكنولوجيّ الحديث، "متسلِّطًا" على الطبيعة؛ يستخدمُها لمآربه ويستغلُّها بطريقة استنسابيّة.

أمّا العلاقة بين المؤمن والمخلوقات السماويّة والأرضيّة، بحسب المزمورَين، فتظهر كعلاقة تواصل مُتبادَل. فالمخلوقات تكشف للإنسان مرحلةً أولى من الوحي (الوحي الطبيعيّ)، تُستَكمل بالوحي الكتابيّ. والإنسان بدوره يدعو هذه المخلوقات صاحبة الوحي الطبيعيّ إلى مُشاركته في تسبيح الخالق. بالتالي، لَنْ يخاف الإنسان العناصر الطبيعيّة بعد اليوم، وَلَن يستغلّها. سوف تربطُهم علاقة "أخوّة كونيّة" تُترجم تكامُلاً في الوحي والتسبيح. فإذا كان الوحي يتمّ بالمعرفة الطبيعيّة من خلال المخلوقات والمعرفة الكتابيّة من خلال الشريعة،

(٥) أفكار هذا المقطع مستوحاة من تفسير المزمور ١٤٨ في كتاب:
Marc GIRARD, *Les Psaumes redécouverts. De la structure au sens, 101-150*, Bellarmin, Canada, 1994, p. 533-535.

كذلك يأتي التسبيح انطلاقًا منها بالذات: يتكامل تسبيح عناصر المعرفة الأولى (فئات المخلوقات السماويّة والأرضيّة) بتسبيح عناصر المعرفة الثانية، تسبيح الشعب المختار السالك بحسب الشريعة.

خاتمة

مَهّدت قراءة هذَين المزمورَين إلى إبراز علاقة وثيقة بين الإنسان وسائر المخلوقات. من الطبيعيّ أنْ يُعالج الكتاب المقدّس مسألة وحي الله ومسألة علاقة الإنسان بالله وبأخيه الإنسان. ولكن قد نستغرب تَطرُّقَ الكتاب المقدّس إلى علاقة الإنسان بالطبيعة وبالمخلوقات عامّة. تتجذّر هذه العلاقة في مفهوم الخَلق: لأنّ خالق السماء والأرض وكلّ ما فيهما واحد، فلا بُدّ من وجود علاقة بين المخلوقات. في الواقع يجب التوقّف مطوّلاً على نظرة الكتاب المقدّس لهذه العلاقة من أجل إبراز خطوطها العريضة. في هذا المجال قيل الكثير بشأن المعرفة الطبيعيّة (معرفة الخالق من خلال مخلوقاته) ، والخليقة التي تئنّ منتظرةً تجلّيَ أبناءِ الله ... ولكنّنا نريد أنْ ننظر إلى الموضوع من زاوية ما نسمّيه "الشهادة الطبيعيّة".

نكتفي بذكر أربعة نصوص، اثنين من العهد القديم وآخَرَين من العهد الجديد، توضح مفهوم "الشهادة الطبيعيّة".

تك ٢٢: [١٥]ونادى ملاكُ الرّبِّ إبراهيمَ ثانيةً مِنَ السَّماء [١٦]، وقالَ: بنفْسي أقسمْتُ، "يقولُ الرّبُّ": "بما أنَّكَ فعلْتَ هذا وما بَخُلْتَ بابنِكَ وحيدِكَ، [١٧]فأُبارِكُكَ وأُكثِّرُ نسلَكَ كنجُومِ السَّماءِ والرَّملِ الّذي على شاطئِ البحرِ.

إر ٣١: ٣٥: وقالَ الرّبُّ القديرُ اسمُهُ الّذي جعَلَ الشَّمسَ نورًا في النَّهارِ، والقمرَ والكَواكبَ نورًا في اللَّيلِ، والّذي يُثيرُ البحرَ فتَعجُّ أمواجُهُ: [٣٦]"إنْ زالَ نِظامُ الكونِ مِنْ أمامي، فنَسْلُ إِسرائيلَ يَبطُلُ أنْ يكونَ أُمَّةً أمامي إلى الأبدِ".

٣٧وقالَ الرّبُّ: "إِنْ أمكَنَ أنْ تُقاسَ السَّماواتُ مِنْ فَوقُ، ويُفحَصَ عَنْ أُسُسِ الأرضِ مِنْ تَحتُ، فأنا أيضًا أنبُذُ جميعَ ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ لأجلِ كُلِّ ما فعَلوا".

مت ٥: ٤٤: أمّا أنا فأقولُ لكُم: أحِبّوا أَعداءَكُم، وصَلّوا لأجلِ الَّذينَ يضْطَهِدونكُم، ٤٥فتكونوا أبناءَ أبيكُمُ الَّذي في السَّماواتِ؛ فهوَ يُطلِعُ شَمْسَهُ على الأشرّارِ والصّالحينَ، ويُمطِرُ على الأبرارِ والظّالمينَ.

مت ٦: ٢٦أنظُروا طُيورَ السَّماءِ كيفَ لا تَزرَعُ ولا تَحْصُدُ ولا تَخزُنُ، وأبوكُمُ السَّماويُّ يَرزُقُها. أمَّا أنتُم أفضلُ مِنها كثيرًا؟ ٢٧ومَنْ مِنكُمْ إذا اهتَمَّ يَقدرُ أنْ يَزيدَ على قامَتِه ذراعًا واحدةً؟ ٢٨ولِماذا يَهتمُّكُمُ اللِّباسُ؟ تأمَّلوا زَنابقَ الحَقلِ كيفَ تَنمو: لا تَغزِلُ ولا تَتعَبُ. ٢٩أقولُ لكُم: ولا سُليمانُ في كُلِّ مَجدِه لبِسَ مِثلَ واحدَةٍ منها؛ ٣٠فإذا كانَ اللهُ هكذا يُلبِسُ عُشبَ الحَقلِ، وهوَ يوجَدُ اليومَ ويُرمى غَدًا في التَّنّورِ، فكَمْ أنتُم أولى مِنهُ بأنْ يُلبِسَكُم، يا قليليّ الإيمانِ؟

تُبرِز هذه النصوص وجهًا من وجوه الطبيعة بحسب الكتاب المقدّس، وهو أنّ أحكامَها تُشكّل شاهدًا على عهد الله ومحبّته وعنايته الأبويّة، وحافزًا للمؤمن على الثبات والنموّ في شبكة علاقاته العموديّة والأفقيّة.

ونُنهي بملاحظة للخوري بولس الفغالي يقول فيها: ونحن الذين تعرّفنا إلى الكون بطريقة أفضل، نحسّ بهذه الدعوة الشاملة التي بها يدعو الإنسان الخليقة إلى تسبيح الله بانتظار نشيد آخر نقرأه في سفر الرؤيا: وسَمعتُ كُلَّ خَليقَةٍ في السَّماءِ والأرضِ وتَحتَ الأرضِ وفي البحرِ والكونِ كُلِّه تَقولُ: "للجالسِ على العَرشِ وللحَمَلِ الحَمدُ والإكرامُ والمَجدُ والجَبَروتُ إلى أبَدِ الدُّهورِ" (٥: ١٣).

المراجع

ALLEN Leslie C., Word Biblical Commentary, Volume 21: *Psalms 101-150* (Dallas, Texas: Word Books, Publisher) 1998. (CDRom)

BEAUCAMP E., *Le psautier*, *Ps 1-72*, Sources Bibliques, J. Gabalda et Cie, Paris, 1976.

———————, *Le psautier*, *Ps 73-150*, Sources Bibliques, J. Gabalda et Cie, Paris, 1979.

COLLIN Matthieu, *Le livre des Psaumes*, CE 92, Cerf, Paris, 1995.

CRAIGE Peter C., Word Biblical Commentary, Volume 19: *Psalms 1-50*, Dallas, Texas: Word Books, Publisher).

GIRARD Marc, *Les Psaumes redécouverts. De la structure au sens*, 101-150, Bellarmin, Canada, 1994.

———————, *Les Psaumes : analyse structurelle et interprétation, 1-50*, Bellarmin-Cerf, Canada-Paris, 1984.

MAILLOT Alphonse et LELIÈVRE André, *Les Psaumes. Traduction, notes et commentaires, Psaumes 1 à 50*, Partie I, Labor et Fides, Genève, ^{2}1972.

MONLOUBOU L., LÉVÊQUE J., PRÉVOST J.P., GRELOT P., MILBERT M. et SAULNIER Ch., *Les Psaumes et les autres écrits*, Petite Bibliothèque des Sciences Bibliques, AT 5, Desclée, Paris, 1990.

PRÉVOST Jean-Pierre, *Petit dictionnaire des Psaumes*, CE 71, Cerf, Paris, 1990.

WAGNER J. Ross, " From the Heavens to the Heart: The Dynamics of Psalm 19 as Prayer ", *CBQ* 61 (1999) 245-261.

الفغالي بولس، **ألهَجُ بكلامكَ نهارًا وليلاً، المزامير ١–٥٠**، القراءة الربيّة ٩، الرابطة الكتابيّة – لبنان، ١٩٩٨.

ـــــــــــ، **هَلِّلوا للربِّ منَ السماوات، المزامير ١٠١–١٥٠**، القراءة الربيّة ١١، الرابطة الكتابيّة – لبنان، ١٩٩٨.

الفغالي بولس وعوكر أنطوان ، **العهد القديم العِبري؛ ترجمة بين السطور: عِبريّ – عربيّ**، الجامعة الأنطونيّة، ٢٠٠٧.